

# لماذا سقطت الدولة الآشورية

بقلم الدكتور سامي سعيد الاحمد  
كلية الاداب - قسم التاريخ  
جامعة بغداد

الدور الذي لعبه الاشوريون انفسهم على مسرح تاريخ الشرق الاذني • ولنا ان نعترف بان اي بحث من هذا القبيل سوف تكون فيه صعوبات لعدم توافر الدليل الكافي وسوف لا يكون الباحثون فيه على نفس الاحاطة بظروف الدولة وملابسات امورها الداخلية والخارجية كما في دراسة ظروف الامبراطورية الرومانية نظرا لبعدها المسافة زمنيا • فلقد سقطت آشور في الوقت الذي لم يكن لروما شأن يذكر بعد • علما بان كثرة التحريات الاثرية في كافة الارحاء التي بسطت آشور عليها سيطرتها وخاصة في الطبقات الآشورية فيها سوف يكون له اثر كبير في زيادة الدليل • هذا وان أهم مصدر نعتد عليه فيما يخص بلاد آشور خاصة في العصور المتأخرة من تاريخها الطويل هي الحوليات (Annals) وهذه لا يمكن الاعتماد عليها بصورة كلية والأخذ بكل ما جاء

في الوقت الذي أتى فيه سقوط الامبراطورية الرومانية تدريجيا ونتيجة عوامل متعددة توافرت لعصور كثيرة كان سقوط الدولة الآشورية نسيبا مفاجئا للغاية وبعد سنوات قلائل من موت ملك قوي فيها ( اشور بانيبال (Ashurbanipal) الذي وطد دعائم ملكها حسب ما يظهر بعد ان حارب لذلك في كل الجهات منتصرا كما تنص على ذلك حولياته التاريخية • واذا كان الكثير من الباحثين قد شغلوا انفسهم بأسباب سقوط روما واضمحلال امبراطوريتها مجذنين سببا واحدا او أكثر في اغلب ما عرضوه من وجهات النظر (مبتدئين من القديس اوغسطين Saint Augustine حتى الوقت الحاضر) فان الاسباب التي أدت الى افول نجم الاشوريين وسرعة سقوط دولتهم قد اهملت من قبل المعنيين بالدراسات الآشورية أو الحضارات بصورة عامة رغم اهميتها البالغة وعظم

فيها من الامور مأخذ الحقيقة • ففرض الحويلات الاساسي هو تمجيد الملوك وتعظيم اعمالهم ومنجزاتهم ليس الا • فلا نقرأ فيها الا اخبار انتصارات تليها انتصارات • اما خسارة آشور لجزء من مقاطعاتها أو أبناء اندحارات منيت بها جيوشها فهي أمور لا نجد لها ذكرا في الحويلات وليس هناك أي طريق لمعرفة الا عن طريق الاستنتاج • فعندما نجد مثلا الملك يغزو المقاطعة اكثر من مرة على التوالي او يغزوها الملك الجديد بعد تسلمه مقاليد الملك نعرف آنذاك ان الملك في الحالة الاولى لم يكن غزوه المبدئي لها ناجحا وانها كانت في ثورة عند اعتلاء الملك الجديد العرش • او من التناقضات الفظيعة التي نقرأها في حويلات الملك الواحد • ولكن بدراسة كافة ظروف الامبراطورية سواء اكانت الداخلية منها ام الخارجية واسباب كثرة الحروب التي خاضوها قد ندرك العوامل الاساسية التي ادت الى سقوط الدولة الآشورية وبتلك الصورة المفاجئة • فالمشكلة البابلية دون شك كانت مسمارا في نعش الامبراطورية الآشورية • وقد حاول كثير من الملوك الآشوريين وعلى الاخص جميع ملوك العصر الآشوري المتأخر حل أزمته المستعصية ولكن دون جدوى • فكل واحد منهم على التوالي قدم الحل الذي رآه ناجعا ومنهم من جرب أكثر من حل واحد خلال فترة حكمه ولكن مصيرها جميعا كان الفشل • فلقد حكم الكاشيون (Kassites) بلاد بابل ردحا طويلا من الزمن صارت البلاد فيه مسرحا للمنافسات الحادة والمخاضات الشديدة بين الشمال والجنوب صاحبها حروب سجال •

ولم تكن المنافسة في العصر الذي أعقب الحكم الكاشي أخف حدة منها في ذلك العصر نفسه • اما في فترة السيطرة الآشورية التي اتت منذ اعتلاء تجلات بلاصر الثالث العرش الآشوري مفتصبا حوالي سنة ٧٤٧ ق.م • فقد حاول الملوك الآشوريون والذين لم تكن اطماعهم في بلاد بابل أقل من اطماع اسلافهم ان لم تكن أكثر بكثير ، اقناع أهل بابل بان يمتنعوا باستقلال ذاتي في نطاق الامبراطورية الآشورية وان يحصلوا على ما يريدون من حرية ولكن ضمن الحكم الآشوري • اما جواب أهل بابل فلم يكن الا الرفض حيث لم يرضوا عن الاستقلال التام وعدم التدخل الآشوري في شؤونهم بديلا • فمن اختلاف هاتين الوجهتين في النظر ، وعدم استعداد اي فريق للتنازل والتراجع بدأ الصراع العنيف ، فالقبائل الكلدانية والآرامية في العراق الجنوبي قد أشهرت سلاحها في وجه كافة الحلول التي عرضها مختلف ملوك العصر الآشوري المتأخر لحل مشكلتهم المستعصية • وكان زعماء هذه القبائل يجدون في عيلام كل مساعدة وعون • فعيلام لم تر من مصلحتها ان يتكون اتحاد من شمال العراق وجنوبه لانه بلاشك سيكون مهددا لكيانها وخطرا على بلادها ولذلك اخذت في مساعدة القبائل في جنوب العراق ووسطه بالسلاح والرجال وفتحت أبوابها لزعمائها الهاريين من مطاردة الآشوريين • ولم تنفع تهديدات الملوك الآشوريين لعيلام ولا ضربهم اياهم في عقر دارهم في سبيل ايقاف مساعدتهم لرجال القبائل النائرة في وجه الاحتلال الآشوري • فالملوك الآشوريون المتأخرون وعلى

في اللوح الواحد قد جاءتنا بكثرة من العصور  
الاكديّة والعصر البابلي القديم  
(Old Babylonian Period) (عصور اسن-لارسه  
وسلالة بابل الاولى (Isin-Larsa Dynasty and  
First Dynasty of Babylon)  
الا انها توقفت لقرون كثيرة قبل احيائها زمن هذا  
الملك الآشوري . اما الملك سنحاريب ٧٠٥-٦٨١  
ق.م (Sennacherib) فقد ربط نسب عائلته البعيد  
بالابطال الخرافيين في الاساطير السومرية امثال  
خومبابا (Humbaba) وأنكيدو Enkidu  
والملك النصف الاله كلكامش Girgamish .

وولع ولده وخليفته أسر حدون (Esarhaddon)  
ولما شديدا بالتعاون ونصوص الفأل Omen Texts  
واستشارات الأرباب القديمة (Oracles) وارسل  
من يجمعها له من مختلف معابد جنوب العراق  
ووسطه . ويشهد الادب الديني من عصر هذا  
الملك باحياء الآراء القديمة والولع في استساح  
أدعية عريقة في القدم . وقد وجد الكثير من  
هذه النسخ وعليها اسم اسرحدون في الحاشية<sup>(١)</sup> .  
وان اكتشاف لوحة باللعبة المسماة بذات الثماني  
والخمسين ثوبا من عصر الملك اسرحدون هذا ،  
وان كانت موجودة في عصر المملكة الوسطى  
بمصر ، الا انها كانت شائعة في بلاد بابل من  
حوالي القرن الثالث عشر ق.م . تدلنا على اتجاهات

الاخص منذ زمن الملك سرجون الثاني Sargon II  
(٧٢٤ - ٧٠٥ ق.م) اظهروا ولعا متزايدا  
بجنوب العراق وبمعالم الحضارة البابلية على وجه  
الخصوص ، وكم كان يلذ لهم ان يربطوا  
انفسهم بالتاريخ البابلي ورجالاته واحداثه .  
فسرجون الثاني كان يتشبه بسرجون الاول ملك  
اكاد الى الحد الذي اخذنا نلاحظ حركة احياء  
لكل ما يتعلق بسرجون الاكدي الذي حكم في  
حوالي الف وثمانمائة سنة قبل شريكه الآشوري  
في الاسم ، وقد سمي السيد أي . تي . اولمسند  
(A.T. Olmstead) بحق هذه الحركة بالنهضة

السرجونية (Sargon Renaissance)<sup>(١)</sup> . فكما  
كان سرجون الاول الاكدي قد بنى عاصمة  
جديدة للملكة فقد عمل سرجون الآشوري على  
انشاء عاصمة حديثة له اسماها دور شروكين  
(Dur Sharrukin) أي قلعة سرجون . ومن  
أجل ان يقنع الكل على مدى مطابقة ومثابهة  
احداث حكمه وخطواته تلك لسابقه وقرينه  
بالاسم فقد أمر النساخ والكتبة الملحقين في بلاطه  
ان يدونوا مقالة يضمنوها حدود امبراطورينه  
ويضعون بدل اسمه اسم سرجون الاكدي . ومن  
زمن هذا العاهل وجدت مؤخرا كتابة في اللغتين  
الآشورية ( وهي لهجة من الأكديّة )  
والسومرية<sup>(٢)</sup> ولو ان الرقم المكتوبة بهاتين اللغتين

(1) A.T. Olmstead, *Western Asia in the Days of Sargon of Assyria*, 722-705 B.C., (New York, 1908), p. 27.

(2) ND 3474, D.J. Wiseman, "The Nimrud Tablets", Iraq XII, (1950); C.H. Johns.

*Assyrian Deeds and Documents*, (London, 1898-1923), III, p. 413.

(4) J. Ebeling, *Keilinschrifttexte aus Assur Religiosen Inhalts*, (Leipzig, 1915), Erster Heft, no. 14 & 16.

شعور ملوك آشور وعلى الاخص ملوك العصر السرجوني بان أكثر معالم المدينة الشمالية ما هي في الواقع الا بابلية جسما وروحا • وبعبارة أخرى ليس هناك طابع حضاري خاص يمكن به تمييز الآشوريين وان صبغة حضارتهم البابلية كانت السبب الرئيسي في تحسنتهم لبسط نفوذهم على بلاد بابل من جهة ولعمل نوع من التوحيد بين القطرين من جهة أخرى حتى يظهروا للعالم أو ليقنعوا انفسهم بان الحضارة في هذه البلاد واحدة غير مفصولة عن بعضها بحواجز طبيعية مانعة ومحكومة من قبل حكومة مركزية وتحت تاج واحد مع كون اسعيين يتكلمون لغة واحدة (الأكديه) مع بعض الفروق الطفيفة بين أهل الشمال والجنوب والدين واحد مع تأكيدات على آلهة معينة في كل من آشور وبلاد بابل<sup>(٧)</sup> •

وأما زمن الامبراطورية الآشورية المتأخرة فالشعب البابلي حسب ما تدلنا المصادر الحالية قد وصل الى حد بالغ من العقم بحيث لا نسمع منه الا حياكة المؤامرات على القوى الحاكمة وانباء غزو القبائل واحتلالها ممتلكات اهالي المدن الرئيسية • فالقبائل الكلدانية والآرامية التي

هذا الملك • وكان ولع واهتمام الملك آشور بانيبال بالحضارات البابلية أكثر من سابقه • فقد اسس في عاصمته نينوى Nineveh مكتبة جمع فيها او أمر حسب ما يظهر بنسخ كل ما وجدوه في المعابد الجنوبية من النصوص القديمة الباحثة في شتى المواضيع<sup>(٥)</sup> • وعمر هذا الملك أكثر المعابد في جنوب العراق وادعى لنفسه معرفة الكتابات المسمارية وحتى القديمة جدا منها كالسومرية • فأثانا المزيد من النقوش المكتوبة باللغتين الأكديه والسومرية • واتخذ اخوه شمش شموكين (Shamash-Shum-ukin) ملك بابل لقب ملك أمنانو (Amnanau) وهو لقب اتخذه سن كاشد (Sin-Gashid) احد ملوك الوركاء الاوائل • وكانت أدعية الملك البابلي هذا وأخيه الملك الآشوري تحوي بعض العبارات التي كانت

تستعمل في الأدعية من العصر البابلي القديم واسقطت من الاستعمال منذ انتهاء ذلك العصر<sup>(٦)</sup> • كل هذه الظواهر تصور مدى ولع الملوك الآشوريين المتأخرين بالحضارة البابلية وحبهم لها مع رغبتهم الشديدة في السيطرة على بلاد بابل وحفظها مربوطة بالعجلة الآشورية • الى جانب

(5) A. Leo Oppenheim, "Assyriology Why and How?", Current Anthropology, no. I, (1960), p. 312; M.J. Menant, *La Bibliothèque du Palais de Ninive*, (Paris, 1880); C. Bezold, *Catalogue of the Cuneiform Tablets of the Kouyunjik Collection of the British Museum*, (London, 1889-1899); C. Bezold, *Bibliothèque Schriftenwesen in alten Niniveh*, Centralblatt für Bibliothekensens, (Juni, 1904), pp. 257-277.

(6) C. Lehmann, *Shamashshumkin*, (Lep zig, 1898), p. 89, Second part, p. 6; George

Barton, *Royal Inscriptions of Sumer and Akkad*, (New Haven, 1929), p. 332, no. 2345; Sami Said Ahmed, *Southern Mesopotamia in the Time of Ashurbanibal*, (Paris, the Hague, 1968), pp. 156-159.

(7) Sami Said Ahmed, "Studies in the Akkadian Language", International Language Review, Vol. 13, (1966), no. 46-7, p. 16, 2; Sami Said Ahmed, Characteristics of Ancient Mesopotamian Religious Thought, AMEZQR, vol. LXXIX, (1967), no. 3, pp. 123-124.

ما ان تربع سرجون الثاني على العرش الآشوري حتى اعلن مردوخ بلادان ملكيته في الجنوب . وقد ساندته عيلام في كل ذلك . وبقي يحكم بلاد بابل لبضع سنوات . واذا اخذنا ما يقوله سرجون الثاني في حولياته مأخذ صدق فان القبائل الكلدانية في تلك الفترة ( اي التي حكم خلالها مردوخ بلادان ) قد اثرت تأثيرا سيئا في اقتصاديات المدن البابلية وصودرت الكثير من اراضي نبلأ أهالي البلاد الى الحد الذي رحب به المواطنون البابليون بجيوشه المحررة عندما تحركت نحوها<sup>(٩)</sup> . وان الدور الذي لعبه كهنة المعابد البابلية في هذه الفترة بالذات لم تذكره لنا المصادر ولا بد وانه كان قويا لما نعرفه عن الدور الكبير الذي لعبه الدين آنذاك في المجتمع البابلي ومركز الكهنة السامي فيه . ولكن يمكننا ان نفرض بانهم ربما أيدوا الآشوريين على أساس سكوت المصادر البابلية عن ذكر دورهم الى جانب كثرة ما كان يقدمه الملوك الآشوريون للمعابد الآشورية من الأموال وتمميراتهم المستمرة لها<sup>(١٠)</sup> . وجلب سنحاريب عليه نقمة ما يسمى بالحزب الديني - العسكري في بلاد آشور بهدمه لمدينة بابل سنة ٦٨٩ ق.م . وتسليطه مياه نهر الاراختو (Arakhtu) ( فرع من نهر الفرات ) عليها والذي ربما يعد من الاسباب التي أدت الى مصرعه . والواقع اننا اذا ما قارنا بين حوليات سنحاريب وحوليات الملوك الآشوريين ممن سبقه مباشرة ، نلاحظ قلة الاهتمام بالمؤثرات البابلية

دخلت السهول الوسطى والجنوبية كانت تحاول فرض قوتها واطهار صولتها وقدرتها البالغة على السيطرة . فسيطرة الآراميون على اكثر مرافق التجارة ليس في بلاد بابل فحسب بل وفي بلاد آشور نفسها . ولم يكن أهالي المدن البابلية من القوة بحيث يتمكنون بها من وضع حد لهجمات هذه القبائل وتصرفاتها . واذا ما تمكن الملوك الآشوريون من اخضاعهم لفترات معينة فانهم قد وجدوا متسعا من الوقت وحرية بالغة في نهب المدن البابلية المفتوحة . ولعبت عيلام دورا ليس بالقليل في سياسة العراق الجنوبي عن طريق مساعدة القبائل الكلدانية بكل الوسائل . وبعد اعتلاء الملك تجلات بلاصر الثالث العرش الآشوري صرنا نسمع أكثر عن الصراع الآشوري - الكلداني للسيطرة على بلاد بابل . ويظهر ان تجلات بلاصر الثالث قد تمكن من اخضاع بلاد بابل كلها تحت حكمه واعلان نفسه ملكا عليها باسم بولو ( پول ) (Pulu)<sup>(٨)</sup> . ولنا ما يحملنا على الاستنتاج بان ابن وخليفة تجلات بلاصر الثالث ( شلمانصر الخامس (Shalmanessar V) والذي اتبع سياسة والده واتخذ اسم اولولايا (Ululaia) في بلاد بابل ، قد فشل في حفظ المنطقة الوسطى والجنوبية مستقرة ابان حكمه . حيث يظهر ان مردوخ - أبال - اددينا (Marduk-Apal-Iddina) والذي يسميه العهد القديم مردوخ - بلادان - كان قد قوى مركزه طيلة فترة حكم شلمانصر الخامس بحيث انه

(8) Sami Said Ahmed. *Southern... op. cit.* p. 51 & fn. 17.

(9) D.D. Luckenbill. *Ancient Records of*

*Assyria and Babylonia*, (Chicago, 1927). Vol. II, no. 68.

(10) *ibid*, nos. 70, 646, 656, 797, 883. etc.

ملكهم الوطني وخلعوه بالقوة • ولم يبق ولده حاملا لتاج سومر وأكد طويلا بل صرعه القبائل النائرة مع الجيش العيلامي الذي انتهز فرصة دخول سنحاريب عيلام في حملته التأديبية لها فدخل سهل العراق الجنوبي • وفي موجة عارمة من الغضب لم ير سنحاريب بدا من تهديم مدينة بابل وتسليط مياه نهر الأراختو عليها ، اما سياسة اسرحدون فقد كانت قائمة على مصالحه البابليين وكسب رضاهم أولا وقد سار عليها طيلة أيام حكمه • وتشير الأدلة على انه قبل ان يموت هذا الملك ترك لنا وصية فحواها انه ينصب على العرش البابلي ابنه الأكبر آنذاك من الزوجة البابلية ( اي شمش شموكين ) على ان يكون استقلالا في الجنوب ضمن اطار الامبراطورية الآشورية الكامل الذي أمر بأن يوضع تاجها على رأس ابنه آشور بانينال • وفي حالة وفاة ابنه ملك بابل فان ولدا آخر من اولاد اسرحدون ينصب بعده • واذا لم يوجد مثل هذا الابن فربعا ولد للملك الآشوري • وفعلا وبعد ان احرق شمش شموكين نفسه بالنار التي اضرمها في قصره بعد فشل ثورته ودخول الجيوش الآشورية المنتصرة بابل سنة ٦٤٨ ق.م • عين آشور بانينال اخيه الاصغر كندلانو لحكم بابل<sup>(١١)</sup> • ولكن ما ان توفي اسرحدون واعتلى الاخوان عرشهما حتى بدأت المشاكل والخلافات بينهما وازدادت حدة وتعقيدا بمرور الزمن • ويظهر ان شمش شموكين كان ذا ميول بابلية

سواء الدينية منها أو الثقافية • اما اسرحدون فقد اتبع سياسة تختلف اختلافا كبيرا عن سياسة ابيه هذه وبدأ في تعمير مدينة بابل ومعابدها • وعزا البعض كل ذلك الى وقوعه تحت تأثير ما يسمى بالحزب الديني في آشور • واستتب السلام في ربوع بلاد بابل طيلة ايام حكمه بالوقت الذي كان فيه الكلدانيون يجمعون قواهم • ويمكن ارجاع سبب السلام في جنوب العراق طيلة ايام حكم اسرحدون الى اشغال عيلام نفسها في مشاكلها الداخلية التي زادت في تلك الفترة بالذات • فقد شعرت عيلام آنذاك بتزايد قوة القبائل الميدية الأمر الذي جعل بعض ملوكها مثل خومبان خالتاش (Humban-Haltash) يتقرب من آشور ويرفض ابواء الزعيم الكلداني نابو - زير - كيتي - ليشير Nabu-Zir-Kitti-Lishir من ابناء مردوخ بلادان في بلاده<sup>(١٢)</sup> • فالقبائل الكلدانية آنذاك لم تمتلك القوة لكي تفرض ما تريد وتشهر السلاح في وجه الآشوريين ، ذلك الذي شهرته بالسابق بمساعدة جيرانهم العيلاميين • ولكن ما ان أنهت عيلام مشاكلها حتى اسرعت لمساعدة الكلدانيين الذين بدأوا غاراتهم على الآشوريين •

فكل المحاولات والحلول التي طبقها سنحاريب لحل المشكلة البابلية باءت بالفشل الذريع ، أمثال تنصيب شخص بابلي معروف بميوله الآشورية ملكا على الجنوب • ثم تنصيب احد أولاده على العرش البابلي بعد ان تار البابليون على

(11) A.T. Olmstead, *History of Assyria*. (Chicago, 1923), p. 350.

(12) Sami Said Ahmed, *Southern... op. cit.*, p.

بعد الانتصارات التي سجلتها ضد عيلام والقبائل العربية •

ونجد سببا آخر لتدهور قوة آشور وضعفها في اتساع امبراطوريتها الكبير وبعد الكثير من حدودها عن المدن التي اتخذت عواصم رسمية للامبراطورية ( آشور Ashur ، كالح Caleh نمرود Nimrud ) دور شروقين ونيوى • ففي الوقت الذي كانت فيه بلاد آشور نفسها تقع في الزاوية الشمالية الشرقية بالنسبة لأكثر ممتلكاتها وعلى بعد قليل جدا من القبائل الجبلية التي اذقتها شتى انواع العذاب ، فقد امتدت ممتلكاتها الى داخل آسيا الصغرى وشملت سورية وفلسطين وجزءاً من آسيا الصغرى غربا وشمالا وحتى مصر في زمن الملك اسرحدون واشور بانيال • وقد لقي اسرحدون في اواخر حياته صعوبة كبيرة في اخضاع مصر اليه ( حيث انه مات وهو في طريقه لاجماد ثورة حدثت فيها ) • ورغم اجماد ولده وخليفته للثورات المتعاقبة في مصر فقد استقلت هذه بعد احتلال الجيوش الآشورية لها بحوالي خمسة عشر عاما • وكانت مشكلة ارسال الجيوش الى الاصقاع البعيدة عن المركز من الامبراطورية من مشاكل التعبئة الرئيسية التي واجهها الملوك الآشوريون في العصور المتأخر • ولو كانت العاصمة في مركز متوسيط بالنسبة لامبراطوريتهم المترامية الاطراف لكانت مشكلة النقل والتعبئة والتموين كثيرا ولاصبح الملوك على قدرة أكبر في قمع الثورات سريعا • الى جانب وعورة طرق المواصلات حيث ان مسألة انشاء شبكة طرق جيدة تربط شتى

وربما ربط نفسه بالحركات التحررية الاستقلالية في الجنوب عند اعلانه عصيانه على اخيه ملك آشور سنة ٦٥٢ ق.م • وكانت النتيجة ان تلاحت قوى الشمال والجنوب وتقدمت الجيوش الآشورية لضرب ومحاصرة المدن البابلية التي قاومت مقاومة شديدة وعلى الاخص مدينة بابل • وبعد حرب دامت اربع سنوات ( ٦٥٢ - ٦٤٨ ق.م • ) وحصار طال امده للعاصمة الجنوبية ( بابل ) ذاق سكانها الامرين سقطت المدينة في ايدي الآشوريين واحرق ملك بابل نفسه وانتهى أمر الثورة البابلية دون جدوى • فالشعور برغبة الاستقلال والتخلص من ربة الاحتلال الآشوري بقي كما هو وخرج البابليون من هذه الثورة حسب ما تدل الظروف والملابسات المقبلة اكثر تضييما على النضال والكفاح حيث لم يمض ربع قرن الا وكان الجنوب قد أعلن استقلاله وتوج زعيما له ( نبوبلاصر Nabopelasser ) ملكا عليه • فالثورة البابلية المسلحة هذه قد اضعفت آشور وانهكت قواها • وعند مقارنة المدة التي صرفتها الجيوش الآشورية في اجماد هذه الثورة مع المدد التي كانت تصرفها على حروبها الاخرى نستنتج بانها اخذت مدة طويلة للغاية مما يدل على حدتها وشدتها واستبسال البابليين فيها ، فلقد أفرغت الجيوش الآشورية نفسها لها ووجهت كل قواها لحرب بلاد بابل طيلة سوات عصيانها الاربع • ولو ان آشور قد خرجت منها منتصرة ، ولكنها كانت بلاشك تنزف دماً من الجراح الكثيرة التي اصابتها • حيث انها لم تعد في مركز القوة ذاته

فقد ظهرت امامها في خطوط المواجهة دولا ذات قيمة امثال آارات وعيلام ومصر وفريجيا لها تخطيطات سياسية مدروسة وأهداف معلومة معادية معقدة . ولكن هذه الدول الاربعة سرعان ما اضمحلت ، فمصر سقطت هي نفسها في يد الآشوريين وضمحلت قوة الدول الثلاث الاخرى تحت تأثيرات عوامل متعددة . وفي الوقت الذي تخلصت به الدولة الآشورية من شرور هذه الدول ومقاوماتها كانت هي نفسها في وضع متردد للغاية واهنة القوى وسرعان ما اصبحت في خسران . الى جانب ظهور قوى جديدة على المسرح السياسي والعسكري للشرق الاوسط امثال الميديين ومصر في نهضتها الجديدة والكلدانيين وليديا . فمصر عملت على تدعيم قوتها العسكرية حالا بعد اعلان استقلالها عن الآشوريين وهي الدولة الوحيدة التي اقدمت بعد سقوط نينوى على نجدة الآشوريين . وفي الوقت الذي اوقع به سرجون الثاني خسائر فادحة في صفوف قوى دولة آارات وقهرها في عقر دارها في حملته الثامنة المعروفة فان آارات نفسها اخذت بعد سنين قلائل تخطف ود الآشوريين لمساعدتهم في وضع حد لهجمات القبائل البربرية امثال السيميريين (Cimmerians) والسيثيين (Schythians) الذين اخذوا يغيرون بعنف وشدة على حدودها الشمالية والغربية . وبنفس الوقت كانت القبائل السيميرية تعبت في الاراضي الفريجية فسادا مهددة كل آسيا الصغرى وحتى بعض المقاطعات

أجزاء الامبراطورية لم يخرجها الملوك الى حيز التنفيذ الا في العصر الأخميني .

وإذا القينا نظرة الى حدود الامبراطورية والفعاليات الحربية على امتدادات هذه الحدود نستنتج بان القوى المعارضة للحكومة المركزية في آشور كانت شديدة ومتنوعة الاغراض والاساليب . ومن عصر الامبراطورية الآشورية المتأخرة وخاصة منذ زمن سرجون الثاني فان أمر هذه القوى المعارضة ومشكلة مواجهتها صارت عاملا مهما في تقرير السياسة الآشورية . ويعتقد البعض بانه منذ عصر هذا الملك ( فيما عدا اسرحدون الذي غزا مصر ) فان حروب الملوك كانت لاغراض دفاعية صرفة (١٣) . ففي الشمال كانت دولة آارات (Urartu) تسيطر على رقعة واسعة من الارض تمتد من الشمال الشرقي حتى الشمال الغربي . وكانت كثيرا ما تتدخل في شؤون الدويلات الآرامية في سوريا وتحرضها وتدخل معها في محالفات ضد آشور ، الى جانب مساعدة عيلام على الحركات المعارضة لآشور في جنوب بابل ووسطها وتأثير مصر على الدويلات الفلسطينية لمعارضة الاحتلال الآشوري ومساعدتها اياهم بكل السبل . وفي منطقة كلكتيا (Cilicia) فان مصالح دولة موشكو (Mushku) (فريجيا) بدأت بالاصطدام مع المصالح الآشورية . فمن قبل كما يبدو كانت القوى المعادية لآشور عبارة عن قبائل واقوام غير منتظمين اما الآن ( في هذا العصر المتأخر من امبراطوريتها )

(13) *Cambridge Ancient History*, Vol, III, editors, J.B. Bury, S.A. Cook, and F.E. Adcock, (New York, 1929), p. 442,

editors, J.B. Bury, S.A. Cook, and F.E. Adcock,



واضحة لكل مستطلع وهي ان الملوك الآشوريين لا قوا منذ زمن سرجون الثاني صعوبة في ايجاد العدد الكافي من الرجال الآشوريين • ولو انه ليس هناك دليل يشير الى هبوط نسبة الذكور في المجتمع الآشوري بالنسبة الى عدد الاناث • ولكن يمكننا استنتاج شيء من هذا القبيل من شئ المصادر ، منها القانون الآشوري • فقد ذكرت الشريعة الآشورية جرائم ترتكب من قبل النساء فقط وقد احتلت النساء به مركزا يشير الى هذا الاتجاه • وان الالتجاء الى تجنيد غير الآشوريين منذ زمن سرجون الثاني لهو دليل قاطع على ما كان يلاقيه الملوك الآشوريون من صعوبة في الحصول على ما يكفيهم من الرجال الآشوريين • وكثرة العناصر الاجنبية في الجيش بلا شك تستلزم سيطرة أكثر من العناصر الآشورية وضبطاً أقوى ، بالإضافة الى علم القواد والملوك والى اختلاف درجة الحماس بين صفوف الجيش والغيرة العسكرية • على ان استخدام اشور بانيال لما تبقى من جيش عيلام المنحدر ، وهي عدوة الدولة الآشورية اللدود ، خير مثل لما آلت اليه مشكلة قلة الرجال في الجيش الآشوري من الخطورة<sup>(١٥)</sup> •

وان كثرة الحملات العسكرية وتتابعها لاختتام الثورات المتعددة وأحيانا المتعاقبة في البلد الواحد على طول حدود الامبراطورية الواسعة وحفظ جيش دائم للحفاظ على ممتلكات هذه الامبراطورية من التناقض كانت تستلزم ولا بد

الآشورية في شمال سوريا ايام اشور بانيال بالخطر<sup>(١٤)</sup> •

وليس من السهل على دولة صغيرة بشعب قليل العدد نسيبا مثل آشور آنذاك ان تحافظ على ثبات جيش كبير قوي على طول حدودها الواسعة • فمثل هذا الجيش وتعزيزه خاصة بالرجال سيكون عبئا ثقيلا على الدولة ومن الصعب جدا استمراره بنفس القوة والعدد خاصة وان الاعلية العظمى من الامم التي خضعت الى الحكم الآشوري لم تشعر تجاهه برغبة في الطاعة والخضوع لذا كثرت ثوراتها وتعددت حركات عصيانها في شتى الارزاء • واذا درسنا حالة الجيش الآشوري في كافة عصور الامبراطورية وعلى ضوء التغيرات التي ادخلت عليه بعد اعتلاء سرجون الثاني العرش لخرجنا باستنتاجات هامة قد تلقي اضواء على الضعف الذي دب فيه وهو عمود الدولة الآشورية والاساس الذي تقوم عليه امبراطوريتها • فقد كان الملوك الآشوريون بالسابق يعتمدون كليا أحيانا على ما يرسله الاقطاعيون الآشوريون من الرجال • وبعبارة أخرى كانت الدولة الآشورية تعتمد كثيرا جدا ( عدا اشور ناصريال الثالث ) على العنصر الآشوري وحده • ولكن في زمن سرجون الثاني بدأ استخدام مرتزقة وأسرى وعبيد في صفوف الجيش باعداد غفيرة ومن مختلف الاصناف ، فما هو الدرس الذي نستخلصه من هذه الاجراءات المفاجئة المتطرفة بالنسبة لسياسات الملوك السابقين ؟ فالحقيقة انكشفت وصارت

(14) Luckenbill, *op. cit.*, nos. 779, 781, 516, 517; Lois F. Hartman, "The Cimmerian

Threat to Ashurbanipal", JNES, Vol. 21, (1962), pp. 25-37.

(15) Luckenbill, *op. cit.*, II, no. 814.

استنزاف أموال طائلة وكان عبثا نفلا جدا على الخزانة الآشورية • الى جانب كون بلاد آشور نفسها فقيرة في الموارد الطبيعية المهمة آنذاك امثال الذهب والفضة والنحاس والحديد • فالسلاح ومعظم معداته مصنوعة من الحديد كانت آشور تستورده من الخارج وهذا يعني انه حتى المستلزمات الحربية للعنصر الاساسي الذي اعتمدت عليه امبراطورتها وهو الجيش كانت في اراضٍ خارجة عن حدود آشور الطبيعية • والذهب الضروري كعنصر ثمين وكذا الفضة لم يتوافرا داخل بلاد آشور • وهذه مشكلة ليست بالهينة أبدا ودفعت بالملوك الآشوريين الى الاهتمام الشديد للمحافظة على مصادر المعادن الضرورية تحت سلطانهم والاستماتة في سبيل ابقائها ضمن مناطق نفوذهم الكليسة وفي ان تكون الطرق التجارية مفتوحة من والى كبادوكيا مصدر الآشوريين الرئيسي للحديد • وكانت هذه الزاوية الواقعة الى الشمال الشرقي من امبراطورتها المكان الذي كان يعتمد عليه الآشوريون أيضا في الحصول على الخيول المهمة لعرباتها وسلاح فروسيها • وان دولة ارارات كانت في عنقها قوتها عندما قاد تجلات بلاصر الثالث حملة ضد اراضي النامري (Namri) التي جلب منها الغنائم الكثيرة وقد أدى انتصاره عليها الى ان يواجه القبائل الميدية التي كانت آنذاك في بدء تحركاتهم وتحرشاتهم على طول الحدود الشرقية

للامبراطورية<sup>(١٦)</sup> • وكانت من القبائل التي ضغطت عليها القوات الآشورية قبيلة زيكير نو (Zikirtu) التي استقرت على طول المنطقة الواقعة الى الشرق من بحيرة رزائية ( Rizaiya ) أو اورمية ( Urmia ) ايام حكم سرجون الثاني والتي طالما وضعت الملوك الآشوريين في مواقف محرجة للغاية وذلك في تحالفها مع دولة ارارات بقصد السيطرة على الخطوط التجارية دون شك<sup>(١٧)</sup> • فان الاهمية الاقتصادية التي كانت لهذه المنطقة بالنسبة للامبراطورية الآشورية لا بد وانها كانت كبيرة بدليل ان سرجون الثاني ظل يرسل الحملات تلو الحملات اليها من أجل اخماد حركات العصيان المتوالية فيها • وبجملته الثامنة تمكن من كسر شوكة دولة ارارات وأمن بذلك لبلاد آشور العناصر الاساسية التي تبقي قواتها المسلحة قوية حيناً وذلك بتأمين المنطقه التي هي مصدر المعادن والخيول<sup>(١٨)</sup> • أما المنطقة الشمالية الغربية فان كلا من تجلات بلاصر الثالث وسرجون الثاني قد أدركا وأعطيا الاهمية الكبرى لمسألة تأمين الخط التجاري المهم في الغرب والذي كان يمر في كركميش (Carchemish) • وهذا بالطبع جعلهما يصطدمان بمصالح كل من فريجيا وأرارات • ولكن نجاح الجيوش الآشورية في شتى ميادين القتال مكّن الدولة الآشورية من تأسيس بعض مقاطعاتهم الهامة في هذه المنطقة أمثال مقاطعتي كركميش وقوي (Que) وتابال

(16) *ibid*, I, nos. 766, 784.(17) H.W.F. Saggs, *The Greatness that Was Babylon* (New York, 1962), p. 113.(18) Luckenbill, *op. cit.*, II, 6.(18) Luckenbill, *op. cit.*, II, 99.

التهجير الاجماعي لكثير من سكان هذه المناطق الشكل الواضح في سياسة كل من هذين العاهلين كوسيلة لاستتباب الامن<sup>(٢٣)</sup> . وقد اخبرنا العهد القديم بان خليفة تجلات بلاصر الثالث اي شلمانصر الخامس قاد حملة الى نفس المنطقة أيضا<sup>(٢٤)</sup> . وان أهمية هذه المنطقة التجارية كمفتاح حيوي الى خطوط البحر الابيض المتوسط التجارية نبيء معروف منذ أقدم الازمنة . وان السيطرة على المدن المهمة في هذه الاصقاع كانت من غايات الملوك الآشوريين وخاصة في هذا العصر . فقد أخضع تجلات بلاصر الثالث المنطقة خلال حكمه ولكنها تارت سنة ٧٢٠ ق.م. مما جعل سرجون يسرع في اخماد حركتها واحتل كلا من حماث ( حماة الحالية ) في سوريا وغزة في فلسطين المدينتين المهمتين على طريق التجارة السورية - المصرية<sup>(٢٥)</sup> . والظاهر ان سرجون قد ادرك عقم سياسة ترك الامراء المحليين في حكم المدن في سوريا وفلسطين حيث ان اخلاصهم كان غير دائم وقلق وما كادت القوات الآشورية تسحب عن أراضيهم حتى عادوا الى العصيان تحت التأثير المصري ، فعمل على استبدالهم بحكام آشوريين<sup>(٢٦)</sup> .

وبذلك صار من الواضح في نهاية حكم

Tabal<sup>(١٩)</sup> . وضمنت حملة سرجون في سنة ٧١٤ ق.م. غزو المنطقة المعروفة بـ كمانو (Kammanu) بعاصمتها الافليمية مليد (Meliddu) التي كانت مركزا لتشعب شبكة من الطرق مكنت الآشوريين من السيطرة عليها بسط نفوذهم على طريق طرسوس - تيانا - مزাকা (Tarsus-Tyana-Mazaka) حتى نهر قزيل (Halys)<sup>(٢٠)</sup> . وبسيطرة الآشوريين على الطرق التجارية الكبرى في الغرب فقد تعاظم التأثير الآشوري في الشمال الغربي ووصل اقصاه زمن سرجون الثاني وقبل نهاية حكم هذا الملك فان القبائل البربرية الكاسحة امثال السيميريين اخذوا ينصبون من منقطة القفقاس مهددين الحدود الشمالية الغربية لدولة آارات<sup>(٢١)</sup> . وحملة سرجون الثاني الاخيرة الى تابال (سنة ٧٠٥ ق.م.) لا بد وانها نجحت في ايقاف القبائل السيميرية واثرت عليها تأثيرا سنيا<sup>(٢٢)</sup> . وفي خلال السنوات الاولى لحكم سنحاريب لم نقرأ عن اية حملة جردت ضد المنطقة الشمالية الغربية مما يدل على ان الاستقرار كان سائدا هناك ولو بصورة مؤقتة . ومن قبل كل هذه فقد قاد تجلات بلاصر الثالث وسرجون الثاني جيوشهما مرات عديدة الى الغرب لاختضاع القبائل النائرة في سورية وفلسطين . وكان

(19) *Ibid.*, II, 8, 25; Saggs, *op. cit.* pp. 116 ff.

(20) Luckenbill, *op. cit.*, II, 26.

(21) L. Waterman, *Royal Correspondence of the Assyrian Empire*, (Ann Arbor, 1935), H. 112.

(22) Olmstead, *Western... op. cit.*, pp. 156-157, no. 41-42.

(23) Luckenbill, *op. cit.*, II, 769 ff; II, 4 ff.; Olmstead, *History...*, *op. cit.*, pp. 182-220.

(24) II Kings, 17: 1 ff; Isaiah, 36: 37.

(25) Luckenbill, II, 27 ff.

(26) *Ibid*, II, 29-30; Olmstead, *Western... op. cit.*, pp. 57-59.

Hezekiah ومساعدة المصريين له جعلت سنحاريب في وضع حرج فضلا عن مساعدة الاعراب الذين يحمون خطوط التجارة التي تمر من الصحراء الى البحر الابيض المتوسط . وان كثرة تدخلات مصر واخلالها بالمصالح الآشورية في المنطقة لمدة طويلة قبل غزو آشور لها يدل دلالة واضحة على ان الآشوريين لم يكونوا ليرغبوا في القيام بتلك المغامرة وانهم لم يقوموا بغزو مصر الا عندما رأوا ان لا وجود لحمل غير<sup>(٢٨)</sup> . اضعف الى ذلك ضعف الفراعنة المصريين في هذا الوقت وعدم قدرتهم على مواجهة الآشوريين باحتلال أي جزء من فلسطين ، فاحتكروا في اثاره القبائل العربية وامراء سوريا وفلسطين . ولكن محاولات سنحاريب في ضرب مصر لم تكن ناجحة ولا نعرف هل ادرك النتائج الوخيمة التي قد تجرأها عليه مثل هذه المغامرة أو ان انشغال جيوشه في بلاد بابل كانت قد انهكته عسكريا واقتصاديا<sup>(٢٩)</sup> .

ولما كانت الحويلات الآشورية لا تعترف مطلقا بأية اندحارات كانت قد منيت بها جيوشها فمن الصعوبة بمكان اذن معرفة الوقت الذي اخذت فيه المقاطعات الآشورية في التحرر من ربة السيطرة الآشورية . ولربما كانت بدايتها في الشمال والشمال الغربي خسلا حكام سنحاريب . وعلى الأرجح فان الدويلات الحاجزة

سرجون الثاني ضرورة المحافظة على الاستقرار على طول الحدود مهما كان عنفوان القوة الآشورية وذلك لتأمين الخطوط التجارية مفتوحة لتجهيزات المعادن والخيول دونما انقطاع عن بلاد آشور . كما أن القبائل البربرية صارت اكثر تهديدا من قبل لسلامة الامبراطورية . وان التضخم الذي لوحظ بصورة جلية في أيام سرجون الثاني الاخير يدل دلالة لايساورها شك على المشاكل الاقتصادية التي كانت تشكو منها الامبراطورية<sup>(٢٧)</sup> . ويمكن ان نرى مختلف أنواع الضغط التي اثرت في سنحاريب وادت الى انحطاط القوة الآشورية ، فالنظام الاداري الرصين الذي أدخله تجلات بلاصر الثالث وسار عليه وثبته سرجون الثاني وخلفاؤه أدى دون شك الى استقرار المقاطعات ولكنه لم يجد نفعاً في ايقاف سيل القبائل البربرية التي اخذت تهدد الحدود الآشورية . واذا كانت الحملة المصرية أيام أسرحدون هي آخر حملة هجومية توسعية آشورية في القرن الاخير قبل سقوط نينوى ، فاننا اذا ما درسنا الظروف التي لابستها والاسباب التي أدت لها ، نرى ان فراعنة مصر قد اخرجوا ملوك آشور عن صوابهم عن طريق تدخلهم المستمر في شؤون سوريا وفلسطين والمدن الفينيقية الى الحد الذي رأوا فيه ان ليس هناك بديل عن القيام بغزو مصر في عقر دارها لتأديبها مهما كلف الثمن . وان ثورة هازاكايا

(27) Olmstead, *Western...*, pp. 168 ff.

(28) Luckenbill, II, 240, 358, 536, 817.

الآشورية لا تذكر أي شيء عن هذه الحملة . وكانت للبعض امثال اولمستد دليلا كافيا على غزو سنحاريب لمصر وفشله .

Herodotus II: 141; Olmstead, *History... op. cit.* p. 309.

(٢٩) لقد اخبرنا هيردوتس بان سنحاريب قد وجه جيوشه نحو مصر ولكن تفشي الطاعون بين قواته حملة على الانسحاب ولكن الحويلات

واخذت تسقط في أيدي جحافلهم المتقدمة الكثير من المناطق التابعة لدولة ارارات واخذوا في مهاجمة المقاطعات الآشورية الشمالية الغربية بكل عنف وشدة • ثم انفصلت تابال وهيلاكو (Hilakku) عن الدولة الآشورية قبل نهاية حكم اسرحدون • وربما كانت خسارة أسرحدون لهذا الاقليم النقي السبب في تغلغه داخل المناطق الميدية املا في الحصول على مصدر جديد للخيل والمعادن<sup>(٣٣)</sup> ، ويظهر ان أسرحدون لم يدرك أهمية المناطق الشمالية الغربية لامبراطوريتها وآسيا الصغرى • وعضا عن الدفاع المستميت عن هذه المناطق فقد وجه كل ما عنده من القوة العسكرية لغزو مصر • فالحوليات تخبرنا بان القبائل البربرية كانت تهدد وتطغى على المناطق الشمالية والشمالية الغربية ، وفي زمن الملك آشور بانيبال كانت هذه المناطق قد أوقفت دفع الجزية وما عليها من الالتزامات الى الدولة الآشورية • ولا نعلم السبب الرئيسي في عدم اهتمام أسرحدون بحماية هذه المناطق في الوقت الذي نعرف فيه انه لم تكن لتقصه القوة التي اظهرها في غزواته لكل من مصر واخضاعه لشوبريا Shupria<sup>(٣٤)</sup> • وعلى كل حال فربما كان المجد الذي اعتقد اسرحدون بانه سوف

(Buffer States) بين كل من ارارات وآشور قد تحررت من نفوذ الاثنين وادعى البعض ان أولاد سنحاريب قد فروا الى ارارات بعد ان قتل ابوهم<sup>(٣٠)</sup> •

ولذلك فمن المحتمل بان الاحتلال الآشوري في الشمال قد تقلص الى درجة بحيث تمكن به المجرمون من الهرب في ذلك الاتجاه ليفلتوا من العقاب •

وان علامات الضعف الداخلية والخارجية بدأت في الظهور علانية زمن أسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق م) • وان الرسائل الى الملك من الموظفين في شتى أرجاء الامبراطورية تشير الى الضعف والتدهور في الادارة<sup>(٣١)</sup> • وأسرحدون كان كثيرا ما يأخذ بنصائح الارباب وخاصة الالهة عشستار الأربيلية (Ishtar of Arbela) ويطلب منها العون والمساعدة لدفع الاخطار المحدقة به • وان أدعية هذا الملك واسئلته والتي وصل لنا منها الكثير ان دلت على شيء فانما تدل على ما وصلت اليه الحالة العامة في زمنه وقلقه المتزايد منها<sup>(٣٢)</sup> • فكثيرا ما كان يشكو من تعاظم وتزايد هجمات القبائل البربرية على حدود امبراطوريته وفعلا ففي عهده تحالف السيشيون مع السيميريين

(30) CAH, *op. cit.*, p. 71, 79; Olmstead, *History... op. cit.*, p. 312.

(31) Waterman, *op. cit.*, H. 679-681, 716. etc.

(32) E.J. Banks, "Eight Oracular Responses to Esrahaddon", *AJSL*, XIV (1897-98), pp. 267 ff; A. Delattre, "The Oracles of Esrahaddon", *Babylon and Oriental Records*, III, (1889), no. 26 Knudtzen, *Assyrische Gebete an den Sonnengott*, nos. 101-

102; S. Strong, "On Some Oracles of Esarhaddon" and Ashurbanipal", *Sonderdruck aus den Beiträgen zur Assyriologie und Vergleichenden Semitischen Sprachwissenschaft*, II, (1893), pp. 632 ff. Luckenbill, II, 618.

(33) Luckenbill, *op. cit.* II, 540-566; Jørgen Laessoe, *People of Ancient Assyria*, transl. by F.S. Leigh-Browne (New York, 1963), pp. 177 ff. Saggs, *op. cit.*, p. 126.

(34) Luckenbill, II, 554 ff.; 593 ff.

يبلغه ، فيما لو نجحت حملته على مصر ، كان شغله الشاغل في وقت كانت بلاد آشور فيه مهددة بأعداء يعرضون مصالحها الرئيسية وخطوط تجارتها الحيوية ومصادر تجهيزاتها لخطر داهم كبير . وتدهورت الحالة زمن ابنه آشور بانينال (٦٦٩ - حوالي ٦٣٠ ق.م) داخليا وخارجيا . فلقد دفع السيشيون القبائل السيميرية امامهم فاجتاحت جموع الاخيرة المتدفقة بلدان فريجيا وليديا . فطلب كايجيس (Gyges) ملك ليديا ( گوگو في المصادر الآشورية ) العون من الملك الآشوري<sup>(٣٥)</sup> . ولكنه سرعان ما اختفى عن الانظار . وتخبنا الحوليات بان الجيوش الآشورية قد اظهرت كفاءة لا بأس بها في المنطقة الشمالية الغربية الأمر الذي أوقف هجمات القبائل البربرية ومنعهم من دخول سوريا<sup>(٣٦)</sup> ، اما القبائل الميديّة فكانت تقوي نفسها وتحكم استراتيجياتها من حدود عيلام حتى النهاية الشمالية الشرقية وبذلك تكون قد قطعت بعصيانها مصدرا آخر ربما كانت تعتمد عليه بلاد آشور أيضا للخيول والمعادن<sup>(٣٧)</sup> . وقد يكون زوان عيلام وسقوط دولتهم نتيجة لضغط القبائل الميديّة أمر سهّل على الآشوريين الزحف بنجاح على شوشة ودق معقل العيلاميين دونما صعوبة تذكر . ففي عهد آشور بانينال خسرت آشور مصر وبعض المدن الفينيقية على البحر الأبيض المتوسط . ولا بد وان الدولة الآشورية عند وفاة آشور بانينال كانت قد استنزفت معظم قواتها وفقدت أغلب

خطوط تجارتها وضيعت مصادرها في المعادن والخيول . اما في عهد خليفته آشور - ايل - ايلاني (Ashur-etil ilani) فقد استقلت معظم المقاطعات وعلى رأسها المدن الفلسطينية وبلاد بابل .

واذا القينا نظرة على العصر الاخير من حلقة تاريخ الدولة الآشورية الطويل نجد سلسلة من الانقلابات العسكرية فتجلات بلاصر الثالث قد أتى الى العرش عن طريق القوة حيث لم يكن له حق شرعي في الملك ولم يكن يعزى الى عائلة مالكة سابقة . ولا بد وان ذهب باغتصابه للعرش بعض الضحايا من الذين عارضوا خطوته وأرادوا ايقافه عند حده ولو ان الحوليات الآشورية التي هي مصدرنا المهم لم تذكر لنا أي شيء من هذا القبيل . ولكن ما ان مضت أعوام قليلة على وفاة تجلات بلاصر الثالث واعتلاء ابنه سلمانصر الخامس العرش ، والذي كان دون ابيه في الدهاء والمهارة على ما يبدو ، حتى بدأت عناصر اخرى مشبعة بحب السيطرة والحكم بالتحرك . وفعلا نجحت بزعامه شخص لا نعرف اسمه الحقيقي من احداث انقلاب عسكري جديد . وبعد نجاح حركته العسكرية اتخذ قائد الحركة هذا اسم سرجون ( شارروكين (Sharrukin)) ومعناه الملك الشرعي اسما رسميا له . وان اقتراض خسارات مادية وضحايا بشرية نتيجة هذه الحركة أمر معقول . ويظهر ان هنالك محاولات لاغتصاب الملك من أصحابه الشرعيين في نهاية حكم الملك

(35) *Ibid.*, 849, 909.(36) *Ibid.*, 779, 781; *CAH, op. cit.*, p. 117.(37) Laessoe, *op. cit.* p. 124; *CAH op. cit.* p. 119.

الجيش الذين اعلنوا العصيان على خليفة والدهم وأخيهم الصغير أسرحدون<sup>(٤١)</sup> . كل هذه الانقلابات ساهمت مساهمة كلية في اضعاف قوة الدولة وفي الانقلاب الاخير ضمن آشور بانيال وان لم يحقق غاياته وربما اقتصر على مقتل الملك نفسه قد أدى الى خسائر جسيمة .

وفي العصر المتأخر كانت مشكلة ولاية العهد من المشاكل التي جرت على الدولة ويلات كثيرة . ففي الوقت الذي كان سنحاريب قد عين ابنه اسرحدون الذي لم يكن هو بالأكبر ، وليا للعهد ، أثار ضغينة ابنائه الآخرين الذين شهروا السلاح في وجه الملك الجديد حال مقتلهم لابيهم وظلوا حتى وفاة اسرحدون يشكلون خطراً اقضى مضجعه ، واسرحدون نفسه لم يتلاف الخطأ الذي وقع فيه والده بل على العكس اظهر حساً وعظفاً على ابنه الاصغر آشور بانيال طيلة ايام حياته وعينه وليا للعهد وطلب من ابنه الاكبر شمش شموكين ان يطيع كلمة اخيه ويخلص له ويدافع عنه<sup>(٤٢)</sup> .

وكانت نتيجة تقريبه لابن الاصغر عكس ما كان يتوقع ، فقد بدأت الخصومة بينهما بعد

آشور بانيال أدت الى مصيره الغامض ولو لم يكتب للحركة النجاح<sup>(٣٨)</sup> . فهناك من قد التزم جانب ولي عهد الدولة ، وهو القائد ( الراب شاقه ( Rab Shaqi ) سن - شوم - ليشير ( Sin-Shum-Lishir ) قد احبط المحاولة وتوج آشور - ايل - ايلاني ملكا . والتقييات الاخيرة التي اجريت في كالح ( نمرود ) كشفت عن ان الطبقة المؤرخة الى نهاية حكم الملك آشور - بانيال قد خربت نتيجة حرائق<sup>(٣٩)</sup> . فالثورة ربما كانت عنيفة للغاية نتجت عنها معارك أثرت في مدن كثيرة منها نمرود . وخلال فترة حكم آشور - ايل - ايلاني وفي وقت كانت فيه بلاد آشور أحوج من أي وقت مضى الى تلاحم القوى وتوحيد الكلمة فان سن - شار - اشكون ( Sin-Shar-Ishkun ) أخ الملك وابن آشور بانيال الثاني وحاكم الجنوب المتمركز في نفر ( Nippur ) قد تجددى سلطة اخيه في بلاد بابل واعلن نفسه ملكا على كل البلاد وتحرك الى الشمال منجياً أخاه عن العرش بقوة السلاح<sup>(٤٠)</sup> . هذا الى جانب مقتل أحد الملوك الآشوريين في هذه الفترة ( العصر المتأخر ) على يد اولاده بمساعدة بعض ضباط

(38) Sami Said Ahmed, *Southern... op. cit.* pp. 121-122; Johns, *Assyrian Deeds... op. cit.* IV, 807, and R. Borger, *Wien Zeitschrift für die Kunde Morgenlandes*, 55, (1959), no. 36.

(39) M. Mallowan, *The Excavations at Nimrud, Iraq*, XVI, (1956), p. 60 ff.

(40) Sami Said Ahmed, *Southern... op. cit.* p. 132.

(41) Luckenbill, II, 502; H.P. Schnabel, *Berosos und die Babylonische-Hellenistische Literatur* (Leipzig, 1923); *Babylonian*

*Chronicle*, CT, XXXIV, 46 ff. col. iii, 34 ff; II Kings, 19: 36 ff; II Chronicles, 32: 21; Josephus, *Antiquities of the Jews*, X, 1,5; B. Meisner, "Neue Nachrichten über die Ermordung Sanheribs und die Nachfolge Asarhadon", *Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften*, XI, (1932) pp. 251-62; Sami Said Ahmed, *Southern... op. cit.* p. 588 ftn. 48, 49.

(42) Sami Said Ahmed, *Ashurbanipal and Shamash-Shum-Ukin during Esarhadon's Reign*, *Abr Nahrain*, Vol. 6 (1965-66), pp. 55-62.

منهم واستماتها في التخلص من ربة احتلالهم ومقاومته • ولنا من قائمة التعذيبات التي سطرها أسرحدون في معاهدته مع راماتايا (Ramataia) الميدي ملك اوروكازابارنا (Urukazbarna) والتي سيطبقها فيه ان هو خالف نصوص المعاهدة ، خير مصدر عن أنواعها المختلفة<sup>(٤٣)</sup> • ولو ان هناك من اعتقد بأن الملوك الآشوريين في الواقع قد بالغوا في حولياتهم عنها وان هذه التعذيبات التي ذكرت في الحويلات وصورت في المنحوتات ما هي الا وسائل دعائية واعلامية لبث الرعب في نفوس الشعوب الخاضعة تحت سيطرتهم أو المعادية لهم ، على انه في تلك الفترات بالذات كانت القبائل المختلفة تنقل حسب مشيئتها الى أية منطقة تختارها دون النظر الى المسافة<sup>(٤٤)</sup> • وهذا أمر مؤكد على ضوء الهجرات الاجماعية التي بدأت منذ القرن الثاني عشر ق.م • واستمرت حتى نهاية الدولة الآشورية • ولكن الغالبية من المواطنين الذين شملتهم سياسة التهجير الاجماعي الآشوري كانت من القبائل المستقرة منذ زمن بعيد ولها مدن عامرة في سورية وفلسطين ووصلت الى درجة عالية من التحضر والمدنية<sup>(٤٥)</sup> •

وان تهجير الكثير من مواطني المدن البابلية ألحق أضرارا بالغة في السكان المهجرين وولد ضغينة وكرهية ضد الآشوريين المحتلين ، الى جانب كون من حل محلهم من القبائل الأقل متحضرا ، والذين ساقتهم السلطات الآشورية

مدة قليلة من وفاة والدهما سنة ٦٦٩ ق.م • والتي وصلت الى أوجها بالثورة التي اعلنها الاخ الأكبر في بابل متحديا بها سلطة اخيه ايما تحدي •

وقد اتبع الآشوريون كما تظهر حويلات ملوكهم والمنحوتات الآشورية المتنوعة سياسة قاسية جدا سواء في معاملة من وقع في ايديهم من اسرى الحرب من اعدائهم أو سكان الاراضي والمسدن التي كانوا يفتحونها فاتبع بعض الملوك الآشوريين سياسة التهجير الاجماعي (Mass Transplantation) وذلك بنقل سكان منطقة بكاملها الى مكان بعيد عن موطنهم الاصلي ويختلفون في الغالب عن سكانه في اللغة والعادات والتقاليد وما الى ذلك • فنعرف مثلا عن نقل سكان مناطق برمتها من مدن سورية الى شمال العراق أو أقوام عبرية من فلسطين الى العراق وما الى ذلك • فهذه العادة بالطبع والتي اجبرت الشعوب التي قاستها على تطبيقها أدت الى كراهية هذه الامم للآشوريين المحتلين فعملت على التخلص من ربة سيطرتهم بكل صورة • ويفتخر الملوك الآشوريون ايما فخر بأعمال القسوة الوحشية التي كانوا يمارسونها ضد سكان المناطق التي يحتلونها فنقرأ عن تقتيل اجماعي وبيع السكان عيدا وسلخ جلود الرجال ونشرها على اسوار المدينة وقطع الرؤوس وتسيخ آخرين (Impaling) والتمثيل والتكيل بالاسرى وما الى ذلك من الاعمال الوحشية • وهذه الاساليب الشاذة تؤدي بالطبع الى اشمئزاز الشعوب التي تحت الاحتلال

(43) D.J. Wiseman, "The Vassal Treaties of Esarhaddon", Iraq XX, (1958), part I. (44) CAH, op. cit. p. 41.

(45) Luckenbill, I, 770 ff; II, 4-5, 14, 33, 31; Olmstead, History... op. cit. pp. 187-188, 208-9.



للسكن في مواطنهم الأصلية ، لم يكونوا بأقل  
اشمئزازا وكرها للحكم الآشوري<sup>(٤٦)</sup> . وقد  
اقترح البعض بأن تهجير الكثير من سكان سوريا  
وفلسطين قد وُلِدَ فراغا لم يشغله أحد حتى  
هجرة بعض القبائل العربية من الجنوب اليها<sup>(٤٧)</sup> .  
وقد أصبح واضحا بعد ذلك بأن تهجير القبائل  
الآرامية منذ أيام ملوك القرن التاسع ق.م .  
الآشوريين لم يساهم أبدا في استتباب الأمن  
واشاعة الاستقرار في ربوع الامبراطورية خاصة  
في العصر المتأخر وما ذلك الا لخصائص تلك  
الزمرة الفريدة . فسرعان ما حَصَلَ هؤلاء  
الآراميون على قوة وسيطرة تجارية كبيرتين في  
المناطق التي استقروا فيها وبرهنوا على قدرتهم  
الفائقة في نشر حضارتهم تحت ظروف متنوعة  
وصارت لغتهم شائعة بل وشبه رسمية خلال  
العصر السرجوني<sup>(٤٨)</sup> ، ولو لم يكن لدينا أي  
دليل على اخلاصهم أو عدم اخلاصهم للسلطات  
الآشورية . أما سيطرتهم على التجارة في العصر  
الآشوري المتأخر فقد كانت واضحة من الرسائل  
الملكية خاصة من عهد سرجون الثاني الذي كان  
يلومهم في بعضها على التضخم الذي طغى في البلاد  
بنهاية حكمه<sup>(٤٩)</sup> ، الى جانب المعاملات التجارية  
المختلفة .  
وان لم تكن في حوزتنا أية أدلة قاطعة

على وجود أحزاب أو تكتلات يمكن تمييزها  
ولكن بدراسة المصادر الآشورية من العصر  
التأخر نلمس شيئا من هذا القليل . ففي بلاد  
آشور وفي عصورها الاخيرة بالذات يمكننا تمييز  
كتلتين غير رسميتين لعبتا دورهما في بلورة  
سياسات الملوك الآشوريين وتوجيهها للغايات  
التي رسمتها لها وهما الحزب الديني والحزب  
العسكري . فافترض البعض بأن سرجون الثاني  
قد تمكن من اغتصاب العرش لانه قد اعتمد على  
مناصرة الحزب الديني الكهنوتي الذي تأثر به  
كثيرا بل لم يكن راضيا البتة عن السياسة التي  
اتبهجها شلمانصر الخامس وذلك باجبار المدن  
المقدسة أمثال آشور وحران (Harran)  
على دفع الجزية الأمر الذي أدى الى أن تفقدنا  
ميزتهما وطابعهما الديني<sup>(٥٠)</sup> . وقد عُزِي اتجاؤ  
سنحاريب الا لأبالي نحو الدين البابلي والآلهة  
الجنوبية الى حقيقة تفضيله وميله الى الحزب  
العسكري في الوقت الذي ينبغي فيه الحزب  
الكهنوتي - الديني في اجتذاب اسرحدون اليه .  
هذا وان عدم التوافق والاختلاف في نفس العائلة  
المالكة والذي لاحظناه في حرب أسرحدون اخوته  
الذين تأمروا على قتل والدهم وحملوا السلاح  
ضد أخيهم الملك في بداية اعتلائه العرش ، ومدى  
اهتمام اسرحدون في حل مشكلة ولاية العهد

(46) Luckenbill, II, 261-262; Olmstead, *History... op. cit.* p. 288.

(47) Olmstead, *ibid*, p. 210.

(48) CAH, *op. cit.* p. 99.

(49) Olmstead, *Western... op. cit.* p. 169.

(50) *ibid*, pp. 31-32, no. 22 and 27, pp. 172-173

المدن أمثال آشور وحران قد أجبر شلمانصر  
الخامس على فرض ضرائب عليهم .  
(CAH, III, p. 46)

هذا ويشك السيد Sidney Smith في  
حقيقة كون نجاح سرجون الثاني يعود الى مناصرة  
الحزب الكهنوتي له . ولكنه يشعر بان تمرد

والذين يقع على كواهلهم ادارة دفنها بكل حزم وقوة وسط عواصف العصر الهوجاء • فاهتم اسرحدون بربط نفسه بمعاهدات مع حكام المعاهدات التابعة له وهو أمر جديد حسب معرفتنا وأدلتنا الحالية ففقد معاهدة مع ملك صورالفيثي واخرى مع راماتايا وربما كانت هناك معاهدات كثيرة لم تصل الينا بعد •

ومن هذا العصر المتأخر نلاحظ ولأول مرة بصورة مؤثرة بارزة تأثير النساء وتدخلمهم في شؤون الدولة<sup>(٥٣)</sup> • وكان التدخل منذ عصر سنحاريب متجسما في شخصية زاقوتي ( نقيه )  
Zaqui Naqia زوجة سنحاريب المفضلة وام اسرحدون • وكانت هذه قد أثرت في سنحاريب تأثيرا كبيرا وسار حسب ارادتها كما يظهر في الكثير من الامور • فنصب ابنه منها ، اسرحدون ، وهو الأصغر ، ولياً للعهد مما أثار غضب أولاده الآخرين من زوجاته السابقات • وزاقوتي نفسها كانت القوة الخفية المؤثرة وراء اسرحدون أيضا وتزولا عند ارادتها نصّب ابنه آشور بانيبال على عرش آشور ولم يكن هو بأكبر أولاده سنا ، غامطا بذلك حق ابنه الأكبر شمش - شموكين • وظلت زاقوتي مؤثرة في السياسة الآشورية لمدة طويلة خلال

قبل وفاته • فمما لا شك فيه ان معاهدة اسرحدون مع راماتايا الميدي ملك اوروكازابارنا قد تركزت حول احترام الاخير لوصية اسرحدون فيما يتعلق بولاية العهد وضرورة مساندته الكلية لآشور بانيبال وحره لكل من يشهر على الاخير السلاح • وقراءة واحدة للمعاهدة وحتى لبعض فقراتها تظهر لنا بصورة لا يخامرها الشك مدى قلق اسرحدون من ناحية والتنازع الشديد على السلطة من ناحية اخرى سواء من نفس أفراد البيت المالك الحالي أو السابق أو غيرهم :

( أحلف بأن ( اذا نازغ آشور بانيبال ) أحد اخوته ، أعمامه ، أبناء أعمامه ، أفراد عائلته أو أي فرد من نسل أبيه أو من نسل العائلة المالكة السابقة أو حاكم أو رئيس أو مواطن آشوري أو أجنبي )<sup>(٥١)</sup> •

فالدليل مقنع للغاية على سوء التفاهم والخصام حتى ضمن العائلة المالكة الحاكمة نفسها<sup>(٥٢)</sup> • فشعور الملك بعدم الاستقرار ضمن حدود عاصمته وحتى عائلته وأقاربه أمر بالغ الخطورة حقا وربما نجد فيه السبب للضعف المعنوي الذي اعترى بعض الملوك المتأخرين أمثال اسرحدون وآشور بانيبال وهم رؤوس هذه الامبراطورية الواسعة الحاكمة

(51) Wiseman, The Vassal... op. cit. 1. 318-322.

الفترة البلاد ادارة حسنة ولم نسمع عن تأثيراتها وتسييرها دفة الدولة خلال حكم زوجها شمش اداد الخامس ( الدكتور سامي سعيد الاحمد ، سميراميس بين الاسطورة والتاريخ ، الاديب ، عدد ٩ ، مجلد ٢٦ ( ايلول ، ١٩٦٧ ) ص ١٩ - ص ٢١ •

(52) Laessoe, People... op. cit. pp. 117-123.

(٥٣) ولو ان التاريخ الآشوري قد حفظ لنا اسم امرأة من قبل وهي شمو رامات ولكن ادلتنا المتوافرة حول شمو رامات (سميراميس) بانها كانت وصية على ولدها القاصر اداد نراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٢ ق م) وادارت خلال هذه

الآشورية في فلسطين وأسكن بها جماعته من فلاحي مقاطعته<sup>(٥٧)</sup> . ولو ان هناك من يؤرخ ارسال جوزايا لهؤلاء الفلاحين الى عهد الملك آشور بانيبال<sup>(٥٨)</sup> .

وفي سنة ٦٢٦ ق.م. أعلن نبوبلاصر نفسه ملكا في بابل وبدأ في توطيد دعائم ملكه ليعمل بعد سنتين تقريبا من اعتلائه العرش على تحرير الجنوب من ربة الحكم الآشوري والخلاص منه الى الأبد بل المباشرة في ضرب الآشوريين في عقر دارهم . وقد نجح في تحالفه مع الميديين وقام الطرفان في الهجوم مع جماعات اخرى (Umman-Manda) ضمن جيوشهم على نينوى ، انتهت أخيرا باحتلالهم اياها سنة ٦١٢ ق.م. وظلت بعض القوى الآشورية في المقاومة تحت قيادة الملك آشور - أو باللط العاشر ثم انتهت أخيرا بالتلاشي رغم مساعدة المصريين له واختفى اسم آشور الى الأبد كقوة سياسية مؤثرة في الشرق الأوسط .

حكم آشور بانيبال<sup>(٥٤)</sup> . ولم يكن من أتى بعد آشور بانيبال من الملوك بالأقوياء القادرين على ادارة الامبراطورية وحمايتها في ظل تلك الظروف الصعبة ، فأشور - اتيل - آيلاني ، خليفة آشور بانيبال كان ضعيفا للغاية فلم نسمع عن خروجه لقتال ولا حتى لصيد أو قنص أو ولع في فن أو عمارة ، وربما كانت الشخصية الاسطورية ساردانا بولوس (Sardanapolos) التي تتكلم الكثير من المصادر اليونانية الرومانية باسهاب عنه وتبعثها الكثير من كتب الادب والشعر في العصور الوسطى بأوربا ، وتدعي انه من ملوك آشور المتأخرين ، وأطنبت في الكلام عن تخنثه وجبه للتشبه بمظهر النساء ، ربما كانت هذه الشخصية الاسطورية هي نفسها شخصية آشور - اتيل - آيلاني<sup>(٥٥)</sup> هذا . ثم أخذت المقاطعات الآشورية بالانفصال واتهز جوزايا (Josiah) حاكم دولة يهودا في فلسطين الفرصة فراح يوسع حدود دويلته بعد أن أعلن انفصاله التام عن آشور<sup>(٥٦)</sup> . فاحتل مقاطعة اشدود (Ashdod)

(54) Hildegard Lewy, "Nitokris-Naqla, "JNES" II, (1952), pp. 264-286.

(55) الدكتور سامي سعيد الاحمد ، سردانا بولوس بين الحقيقة والخيال ، الاديب ، عدد ٢ ، (شباط ١٩٦٦) مجلد ٢٥ ، ص ٢٠ - ص ٢٤ .

(56) Frank Cross & D. Freedman,

"Josiah's Revolt against Assyria", vol. XII. 1953), pp. 56-58.

(57) J. Naveh, "A Hebrew Letter from the 7th Century", Israeli Exploration Journal, 10 (1960), no. 3, pp. 129-139.

(58) W. Hallo, Biblical Archaeologist, XIII (1960), no. 2, p. 61, no. 53.

